المحاضرة الخامسة: الفلسفة الماركسية

أولا: نشأة الفلسفة الماركسية

ظهرت الفلسفة الماركسية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر في سياق تاريخي وفكري واجتماعي خاص، تميز بتحولات اقتصادية وسياسية وفكرية عميقة. ولم تكن الماركسية نظرية معزولة، بل جاءت نتيجة تفاعل عدة عوامل أهمها السياق الأوروبي العام، والثورة الصناعية، والفلسفة الألمانية الكلاسيكية.

1_ ظهور الفلسفة الماركسية

ظهرت الفلسفة الماركسية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وهي فترة شهدت تحولات كبرى مست مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فقد أدى انهيار النظام الإقطاعي إلى ظهور المجتمع الرأسمالي الحديث، حيث أصبحت الصناعة والتجارة أساس النشاط الاقتصادي بدل الزراعة.

كان لتلك التحولات أثر عميق في ظهور طبقتين اجتماعيتين أساسيتين:

- ✓ الطبقة البرجوازية: المالكة لوسائل الإنتاج.
- ✓ الطبقة العاملة (البروليتاريا): التي تبيع قوة عملها مقابل الأجر.

أدت تلك الاوضاع إلى بروز التفاوت الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي، مما دفع المفكرين إلى البحث عن تفسير علمي لهذه الظواهر الاجتماعية.

كما ساهمت التحولات السياسية الكبرى في تشكيل الفكر الماركسي، خاصة:

- ✓ الثورة الفرنسية التي نشرت أفكار الحرية والمساواة وحقوق الإنسان.
- ✓ الثورات الأوروبية سنة 1848 التي كشفت عن التوترات الاجتماعية داخل المجتمع الصناعي.

وقد رأى كارل ماركس أن النظام الرأسمالي يحمل في داخله تناقضات تؤدي إلى الصراع الطبقي ومن ثم إلى التغيير التاريخي. ومن هنا ظهرت الماركسية كمحاولة لتفسير المجتمع تفسيرا علميا قائما على دراسة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية.

2_ أثر الثورة الصناعية في نشأة الفلسفة الماركسية

تعد الثورة الصناعية من أهم العوامل التي ساهمت في ظهور الفلسفة الماركسية، إذ أدت إلى تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة.

فقد أدى انتشار المصانع والآلات إلى:

- ✓ انتقال السكان من الريف إلى المدن.
- ✓ ظهور المدن الصناعية الكبرى.
- ✓ نمو الطبقة العاملة.
- ✓ انتشار الفقر في الأحياء العمالية.
- ✓ زيادة ساعات العمل وانخفاض الأجور.

وقد عاش كارل ماركس في زمن أصبحت فيه الرأسمالية الصناعية النظام الاقتصادي المهيمن، فلاحظ التفاوت الكبير بين أصحاب المصانع والعمال. واعتبر ماركس أن العمل أصبح سلعة تباع وتشترى، وأن العامل فقد السيطرة على إنتاجه، وهو ما سماه الاغتراب.

كما رأى أن الرأسمالية تقوم على استغلال العمل المأجور من خلال تحقيق أرباح تعتمد على فائض القيمة.

وهكذا شكلت الثورة الصناعية الأساس الواقعي الذي بنيت عليه النظرية الماركسية.

3_ تأثير الفلسفة الألمانية في نشأة الماركسية

تعد الفلسفة الألمانية من أهم المصادر الفكرية التي أثرت في تكوين الفلسفة الماركسية، خاصة فلسفة جورج "فيلهلم فريدريش هيغل" Georg Wilhelm Friedrich Hegel و "لودفيج فويرباخ" Ludwig Feuerbach

3_1 تأثير هيغل

استفاد ماركس من فلسفة هيغل وخاصة منهجه الجدلي (الديالكتيكي)، الذي يقوم على فكرة أن التطور يتم عبر التناقض والصراع. ويرى هيغل أن التاريخ هو حركة مستمرة تقوم على صراع بين الأفكار المتناقضة.

وقد أخذ ماركس هذا المنهج لكنه رفض طابعه المثالي، فبينما كان هيغل يرى أن الفكر هو أساس الواقع، رأى ماركس أن الواقع المادي هو أساس الفكر. ولهذا قال ماركس إنه "أعاد الجدل الهيغلي من الرأس إلى القدمين."

3_2 تأثير فيورباخ

تأثر ماركس أيضا بفلسفة فيورباخ التي قامت على المادية ونقد الدين. فقد رفض فيورباخ الفلسفة المثالية ورأى أن الإنسان كائن مادي يعيش داخل الطبيعة، وقد ساعدت أفكار فيورباخ ماركس على الانتقال من المثالية إلى المادية. لكن ماركس انتقد فيورباخ لأنه ركز على تفسير العالم دون تغييره، بينما رأى ماركس أن مهمة الفلسفة هي تغيير الواقع الاجتماعي.

ثانيا: الأسس الفلسفية للماركسية

تقوم الفلسفة الماركسية على مجموعة من الأسس النظرية التي شكلت الإطار الفكري لتحليل المجتمع والتاريخ. وقد سعى كارل ماركس Karl Marx وفريديريك هيغل Friedrich Engels إلى بناء فلسفة جديدة تقوم على تفسير علمي للواقع الاجتماعي، بعيدا عن الفلسفة المثالية.

ومن أهم هذه الأسس: المادية الجدلية، والمادية التاريخية، والصراع الطبقي.

1_ مفهوم المادية الجدلية

المادية الجدلية هي المنهج الفلسفي الذي اعتمد عليه ماركس وإنجلز في تفسير الطبيعة والمجتمع والتاريخ، وهي تقوم على الجمع بين:

- المادية: التي ترى أن الواقع المادي هو أساس الوجود.
- الجدل (الديالكتيك): الذي يرى أن التغير يحدث نتيجة الصراع بين المتناقضات.

وتقوم المادية الجدلية على فكرة أساسية مفادها أن العالم ليس ثابتًا، بل هو في حالة تغير دائم نتيجة التناقضات الداخلية.

وقد استمد ماركس فكرة الجدل من فلسفة فريديريك هيغل لكنه أعطاها طابعا ماديا بدل الطابع المثالي. فبينما كان هيغل يرى أن الفكر هو أساس الواقع، رأى ماركس أن الواقع المادي هو الذي ينتج الفكر.

2_ مفهوم المادية التاريخية

المادية التاريخية هي النظرية التي وضع أسسها كارل ماركس وطورها فريدريك إنجلز، وتقوم على تفسير التاريخ تفسيرا ماديا، أي انطلاقا من الواقع الاقتصادي والاجتماعي لا من الأفكار المجردة.

تعد المادية التاريخية منهجا علميا في تفسير تطور المجتمعات البشرية، يقوم على اعتبار أن الأساس الحقيقي للتاريخ هو الحياة المادية للإنسان، وبالخصوص طريقة إنتاجه لوسائل عيشه. فالمجتمع، وفق هذا التصور، لا يتشكل انطلاقًا من الأفكار أو المبادئ المجردة، بل من شبكة العلاقات التي يقيمها الأفراد فيما بينهم أثناء عملية الإنتاج، وهي ما يُعرف بعلاقات الإنتاج. وتؤدي هذه العلاقات إلى ظهور طبقات اجتماعية متباينة المصالح، كما تُنتج في الوقت ذاته مؤسسات سياسية وقانونية وفكرية (كالدولة والقانون والدين) تعكس طبيعة النظام الاقتصادي القائم وتعمل على تكريسه. غير أن هذا البناء الاجتماعي ليس ثابتًا، إذ يشهد تحولات مستمرة نتيجة التناقض بين تطور قوى الإنتاج (كالعمل والتقنية) وجمود علاقات الإنتاج، وهو ما يفضي إلى صراعات طبقية تقود في النهاية إلى تغيير النظام الاجتماعي والانتقال إلى مرحلة تاريخية جديدة. ومن ثم، فإن المادية التاريخية تفسر التاريخ باعتباره سيرورة من التحولات المرتبطة بتغير الشروط المادية للإنتاج.

وباختصار فإن المادية التاريخية هي نظرية تفسر تطور المجتمعات انطلاقًا من الشروط المادية للإنتاج، حيث تحدد طريقة إنتاج الحياة الاقتصادية بنية المجتمع وعلاقاته ومؤسساته، ويحدث التغير التاريخي نتيجة التناقض والصراع بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج.

3_ العناصر الأساسية في المادية التاريخية

التعرض لفكرة "المادية التاريخية" نصنف ضمن أبرز المناهج التفسيرية للتاريخ وللقراءات السياسية والاجتماعية المعاصرة، التي سعت إلى فهم تطور المجتمعات الإنسانية من خلال العوامل المادية، وعلى رأسها النشاط الاقتصادي. وقد انطلق هذا التصور من اعتبار أن البنية الاقتصادية للمجتمع تشكل الأساس الذي تقوم عليه مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية.

أ_ نمط الإنتاج

يقوم نمط الإنتاج باعتباره حجر الزاوية في التحليل الماركسي على عنصرين أساسيين متكاملين، يتمثل أولهما في قوى الإنتاج، التي تشمل مجموع الوسائل المادية والبشرية المستخدمة في العملية الإنتاجية، مثل الأرض، والآلات، والتكنولوجيا، واليد العاملة، إضافة إلى الخبرة التقنية المتراكمة. أما العنصر الثاني فهو علاقات

الإنتاج، وهي تلك العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين الأفراد أثناء عملية الإنتاج، وتشمل أنماط الملكية، وعلاقة العامل بوسائل الإنتاج، وكذلك طبيعة العلاقات القائمة بين الطبقات الاجتماعية.

ب_ البنية التحتية والبنية الفوقية

تبرز فكرة البنية التحتية والبنية الفوقية، كعنصر اساسي في التفسير المادي للتاريخ، حيث تشير البنية التحتية إلى الأساس الاقتصادي للمجتمع، أي نمط الإنتاج السائد، في حين تمثل البنية الفوقية مختلف المؤسسات والأنظمة الفكرية والتنظيمية، مثل الدولة، والقانون، والدين، والثقافة. وترى المادية التاريخية أن هذه البنية الفوقية ليست مستقلة، بل تتشكل وتتحدد وفق طبيعة البنية التحتية، مما يعني أن التحولات الاقتصادية تقود في النهاية إلى تحولات فكرية وسياسية وثقافية. اي ان هناك علاقة جدلية دياليكتيكية بين الفكر والواقع.

ج_ الصراع الطبقي

مفهوم الصراع الطبقي من المفاهيم المحورية في الفلسفة الماركسية، إذ ينشأ هذا الصراع نتيجة التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. فعندما تتطور قوى الإنتاج إلى حدّ تصبح فيه علاقات الإنتاج القائمة عائقا أمامها، يظهر التوتر بين الطبقات الاجتماعية، ليتحول إلى صراع مفتوح يسهم في تغيير النظام الاجتماعي القائم. من هذا المنذلق الفكري، يؤكد كارل ماركس أن تاريخ كل مجتمع هو تاريخ صراع الطبقات، في إشارة إلى أن مسار التاريخ تحكمه صراعات مستمرة بين الفئات الاجتماعية ذات المصالح المتعارضة، خاصة بسبب التفاوت في ملكية وسائل الإنتاج.

في إطار تحليله للمجتمع الرأسمالي، قسم ماركس المجتمع إلى طبقتين رئيسيتين، الطبقة البرجوازية، وهي الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج كالمصانع ورؤوس الأموال والشركات، والطبقة العاملة أو البروليتاريا، التي لا تملك وسائل الإنتاج، مما يضطرها إلى بيع قوة عملها مقابل أجر، فيصبح جهد العامل يقاس بمبلغ مادي. وتقوم العلاقة بين هاتين الطبقتين، بحسب ماركس، على أساس الاستغلال الاقتصادي، حيث تستحوذ البرجوازية على فائض القيمة الناتج عن عمل العمال.

من خلال التحليل الماركسي أن الصراع الطبقي لا يستمر إلى ما لا نهاية، بل يقود في مرحلة معينة إلى اندلاع ثورة اجتماعية تحدث تحولا جذريا في بنية المجتمع. وقد تصور ماركس تطور المجتمعات الإنسانية عبر مراحل تاريخية متعاقبة، تبدأ بالمجتمع الإقطاعي، ثم المجتمع الرأسمالي، يليه المجتمع الاشتراكي، وصولا إلى المجتمع

الشيوعي، الذي يفترض أن تختفي فيه الطبقات والصراعات الطبقية، ويتحقق فيه نوع من العدالة الاجتماعية الشاملة.

ثالثا: المصادر الأصلية للفلسفة الماركسية (Primary Sources)

1_ أعمال كارل ماركس وفريدريك إنجلز

_ ماركس وإنجلز: البيان الشيوعي

_ ماركس: رأس المال والأيديولوجيا الألمانية و المخطوطات الاقتصادية والفلسفية 1844. و نقد فلسفة الحق عند هيغل

_ إنجلز: ضد دوهرنغ ولودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية

2_ هذه النصوص والمصادر تؤسس للمفاهيم التالية:

المادية التاريخية والمادية الجدلية والصراع الطبقي ونقد الرأسمالية.

وقد اعتبر الباحثون أن المادية الفلسفية والديالكتيك والتفسير الاقتصادي للتاريخ تشكل العناصر الأساسية للفلسفة الماركسية. كما أن الفلسفة الماركسية تأثرت بالفلسفة الألمانية وخاصة فلسفة جورج فيلهلم فريدريش هيغل(1770/1831) ولودفيغ فويرباخ ludwig Feuerbach (1804-1872)

يمكن الاطلاع على المرجع المبسط

ابراهيم ماجد الشاهين، ثورات الشعوب الأوروبية 1848، مركز نهوض للدراسات والنشر، بيروت، 2019.